أسلوبية التناص في الخطاب السردي لدى عبد المالك مرتاض

– "رواية وادي الظلام" نموذجا–

Stylistic Stability in the Literary Discourse of Abd Al-Malik Mortadh - "Valley of Darkness" as a model -

الحاج جغدم

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف–djourdemhadj@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/02/06 تاريخ القبول: 2019/05/22 تاريخ النشر: 2018/12/31

ملخص: إنّ الدارس للرواية العربية المعاصرة في الجزائر، سيعثر فيها على عديد المزايا النصية، تجعل من القارئ/ المتلقي يتماهى مع نصوصها، مزايا تخص تيمات السرد التي يثيرها الراوي، والتي على علاقة بالواقع المعيش، حيث اتسمت بالواقعية الشفافة، لأنها عالجت قضايا المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عامة، وقضايا العنف والإرهاب خاصة، وأخرى تخص جماليات الخطاب السردي، من مثل: الأسلبة والتناص، والعجائبي والتهجين.

إن الباحث عن البنية العميقة الدالة التي تنظم وتؤسس للخطاب الروائي لدى عبد المالك مرتاض، يجدها بارزة في ظاهرة التناص، لأنه يعد سندا من السندات التي تمنح الشرعية الأدبية أو الشعرية أو الجمالية للخطاب الأدبي، ذلك أن التداخل النصي يستدعي حضور أطياف متعددة من النصوص الغائبة، والتي تسهم في تهيئة الظروف للتواصل مع المتلقي.

من هنا تروم هذه الورقة البحثية الموسومة ب "أسلوبية التناص في الخطاب السردي لدى عبد الملك مرتاض– رواية وادي الظلام نموذجا" ، إبراز عديد التناصات (التناص الديني– التناص الأدبي– التناص التاريخي)، حيث نجد السارد أسيرا لنصوص من التراث الإنساني عامة، والتراث العربي الإسلامي خاصة.

وعليه، فإن الخطاب السردي لدى عبد الملك مرتاض، يقوم على بناء أسطوري خارق، يستدعي فيه كل عجيب غريب، مما أتاحت له خرافات الأولين، حيث يبعث شهرزاد من لياليها الحكائية القديمة في صورة "بني حلول" بوادي الظلام، وصراعها مع قبيلة "بني فرناس".

كلمات مفتاحية: التناص ؛ الأسلوبية؛ الخطاب؛ السرد؛ وادي الظلام.

المؤلف المرسل: الحاج جغدم ، **الإيميل:** djourdemhadj@gmail.com

المنارة للاستشارات

ww

Abstract:

The student of the contemporary Arabic novel in Algeria will find many textual advantages that will make the reader / receiver adapt to its texts. The advantages of the narrator's narration, which relate to the living reality, are characterized by transparent realism because they addressed social, economic and cultural issues Especially the issues of violence and terrorism in particular, and others related to the aesthetics of narrative discourse, such as: inheritance, tolerance, and hybridization and hybridization.

The researcher of the deep structure of the function that organizes and establishes the discourse of the novelist Abdelmalek Murtaza finds it prominent in the phenomenon of intermingling, because it is a bond of bonds that give moral legitimacy, poetic or aesthetic literary discourse, because the overlap text requires the presence of multiple spectra of texts absent, Which contribute to creating the conditions to communicate with the receiver.

This paper, entitled "Stylistic Stability in the Literary Discourse of Abd Al-Malik Mortadh," is an example of the "Valley of Darkness" as a model for the multiplicity of intermarriages. The narrator is captive to texts of the general human heritage, Arab Islamic special.

Thus, the narrative discourse of Abd al-Malik Murtadh, based on the construction of the mythical supernatural, which calls for all strange strange, which allowed him the myths of the first, where Shehrazad of the nights of the old architecture in the form of "Bani djaloul" Valley of darkness, and conflict with the tribe of " bani farness.

Keywords: stability ; stylistic; discourse; valley of darkness

المنارة للاستشارات

ww

1. مقدمة:

إن رواية "وادي الظلام" اِشتملت على عديد التناصات "التناص الديني- التناص الأدبي- التناص التاريخي"، لكن "التناص الديني" من التناصات الأكثر حضوراً في بنية النص الروائي، والتي كسته بحلة دينية أثرت العمل على المستوى الدلالي والجمالي والأسلوبي.

2. التناص الديني في رواية "وادي الظلام":

وعليه، فإن التناص الديني "تأرجح بين آيات من القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهما من مصادر التشريع الإسلامي والموروث الديني المشرق.

ومن هنا، نجد عبد الملك مرتاض أسيراً لنصوص تأثر بها بشكل أو بآخر، ومن هذه النصوص "النص القرآني" الذي نراه يتناص معه بشكل رهيب حتى يبدو للقارىء أنه أمام "النص الأصل"، فالقرآن الكريم يحتل عنده مكانة مقدسة، بل في مقدمة المصادر تأثيراً في خطابه الروائي على غرار روايتي "وادي الظلام" و"مرايا متشظية"، ويعود ذلك إلى وعيه وإدراكه بأن لغته غنية بمختلف الإيحاءات.

إن إيمان الروائي الخالص بالقرآن الكريم جعل "التناص" مع القرآن الكريم يغطي مساحة واسعة عن إبداعه الروائي، حيث تألفه يستلهم الألفاظ والعبارات القرآنية ليوظفها في تخصيب المادة السردية.

وبناءً على ذلك، فإن القارئ هو الذي يستكشف النص الغائب ويستحضره داخل النص الحاضر أو المقروء «لاستكشاف روح النص المبدع أو سلطة المبدع في نصه، ومن ثم فهو الذي يقوم بصياغة قراءة جديدة، مما تجمع له من نصوص، تقول ما لم يقله النص الحاضر أو المقروء»[1].

وتحقيقاً لهذه الفرضية، فإن رواية "وادي الظلام" من ضمن النصوص الروائية التي نهلت من القرآن الكريم، حتى شكلت بنية النص السردية، بالإضافة إلى لغة السارد التي

المنارة للاستشارات
ww

تشرب من نبع الألفاظ التي ولدت مع العشرية الحمراء، فإن مفردات القرآن الكريم، وتراكيبه، دخلت في السياج اللغوي للرواية، وأصبحت منسجمة معه.

وعلى هذا الأساس، ألفينا الروائي يجاري القرآن الكريم في نصوصه حيث إستوقفتنا عديد المسارد، من مثل قول السارد: "يقال إن الشيخ حسونة كان شيخاً متخاذلاً ولم يكن في أصله، في الحقيقة من قبيلة الجلولية، فكان لا يعنيه كثيراً أن يغزوها عدو لها ويستولي عليها (...) لأنه في نهاية الأمر يعود إلى قبيلته الأصلية فيترك الأمور حبلها على غاربها، ذلك ما فعل بعد وقوع احتلال الجلولية، فقد التحق بأهله، وترك المحروسة للغزاة يعيثون فيها الفساد، ويصبون على أهلها أسواط العذاب ..."[2]. ففيه، يتقاطع مع قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾[3]

ينبئ هذا الاقتباس في معناه الإشاري الباطني إلى أن شيخ المحروسة حسونة كان سبباً مباشراً في العذاب الذي ألحقته بنو فرناس بشعب كان قدَرُهُ قدراً محتوماً، فالشيخ من هاته الوجهة لا يختلف عن فرعون، كونهما قد ألحقاَ العذاب بقوميهما، لتخاذل الأول أمام بني فرناس، وعصيان الثاني لرّبه.

وفي نص آخر، يشير إلى تناص قرآني مع آيات من سورة طه، تشير إلى حادثة دينية في التراث الديني، مؤداها إخصاب البنية السردية تماشياً مع أسلوب النص، وهي من قبيل انتصار الحق على الباطل، يقول: " وقد ضربوا للأم زينب موعداً لا يخلفونه هم ولا هي، على أن يكون ذلك يوم عيد النصر ضحى، وعلى أن تحكي لهم الأم زينب في ذلك العيد حكاية القبيلة ..."[4].

فالسارد، يتناص مع قوله تعالى: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾[5].

المنارة للاستشارات
ww

والمتبصر لهذا الحوار بين النصين، على أنه ما أشبه الموقف بالموقف، فالنصر المبين والخلاص المنتظر يتحقق بانجلاء الحق وانكسار الباطل في صراع الشر مع الخير طرفاه على النقيض، ونتائجه تباشير النصر بين ثنائيات متعاكسة ومتصارعة: (موسى عليه السلام# فرعون)، (قبيلة الجلولية # بني فرناس).

والأمر نفسه، ينبني على عديد التدخلات النصية، ومنها نذكر "وكان الداخل إلى الوادي حين يدخل يقع تحت دائرة الظلال الكثيفة التي كانت تحجب الشمس فتحيل البطائن إلى الظلام، فيحس الداخل إليه كأنه في ليل بهيم أو كأنه تحت سحابة سوداء توشك أن تمطر (...) وكان أهل هذه القبيلة العظيمة يطعمون من ثمار وادي الظلام، ويشربون وأنعامهم من مياهه"[6].

والمتأمل لهذا الخطاب يجد أنه تلون بألفاظ رقيقة عذبة، نقلت مشاهد شاعرية هادئة موحية بالحالة التي يستود المكان وبحالة ساكنيه، وهي من معجم مفردات القرآن (يطعمون، تحجب، أنعامهم، يشربون)، فزادت من جمالية الأسلوب[7]، وهي مستوحاة من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[8].

ومن التناصات الواردة في هذا الخطاب، قول السارد "كانت الأم زينت في زهاء التسعين من عمرها، وكانت تتخذ لها عصاً متقادمة تتكئ عليها حين تمسي"، هذا المقطع مركب من قوله تعالى:﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ والتي يختلف سياقها عما جاء في المتن الروائي حيث جاءت الآية في مقام إخبار بينما السياق في مقام الوصف.

أما التناص مع الحديث النبوي الشريف، فمداره يتجلى في حوار الروائي مع قصة "صويحبات يوسف" التي اِستقاها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي قول السارد "لا تعودوا لي إلا بها ولو مقتولة هذه المرة ولو مقطعة إرباً إرباً، إياكم ثم إياكم، أن ترجعوا لي

المنارة للاستشارات
ww

وهي ليست معكم ... إنهن صويحبات يوسف ..." الذي يتناص فيه مع الحديث النبوي الشريف: «لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم، أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فأمر عمر فليصل بالناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكن لأنتن صويحبات يوسف»

3. التناص التاريخي في رواية "وادي الظلام":

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، مما لا يختلف فيه اثنان، أن التاريخ كان مصدراً هاماً، استقى منه عبد الملك مرتاض مادته السردية وصاغها في قالب فني مستخدماً تقنية التناص مع المصادر التاريخية، حيث ينبئ ذلك على اطلاعه الواسع للمصادر والمراجع التاريخية العربية والاسلامية وغيرها من كتب التاريخ الإنساني.

وركحا على هذا التأسيس، نقر أن عبد الملك مرتاض تبنى هذه المراجع ووظفها في رواية "وادي الظلام"، فجاء سرده متداخلاً مع الحوادث التاريخية التي ألمت بالجزائر منذ الغزو الإستدماري إلى العشرية السوداء التي كادت أن تعصف بالوطن، فتراه يوظِف النصوص الروائية.

وعليه، فإن عبد الملك مرتاض –حسب علمنا– يتناص مع مصدر "معجم البلدان" لياقوت الحموي بحيث نجح في وصف الأزمة بطريقة روائية مبنية على السرد العجائبي فوقف على كهف الظلمات والنهر العجيب وعين وبار والعفاريت، إلا أن الرواية "رغم العجائبية التي تلفها إلا أنها محاولة جادة من صاحبها لتعرية الواقع واستجلاء بعض ملامح المسكوت عنه.

ولكي يؤكد السارد على مصداقية الحكاية، فإنه يضعها قريبة من "عين وبار"، وعين وبار ذكرت في المصادر التاريخية من مثل ما ذكره "ياقوت الحموي" يقول عبد الملك مرتاض: "... وكانت إذا دفعت إلى ساحات بعض الأحياء يتحلق من حولها الفتيان والفتيات ليسمعوا من سرد حكاياتها الغريبة، وقص أخبارها العجيبة، فيستمعوا بحكيها ... وكان ذلك

المنارة للاستشارات
ww

ربما استغرق الساعة والساعات ... فكانت تسمعهم من حكايات الأغوال، والجان والنسناس وكل حكايات الأساطير والملاحم، حكايات العشاق"

من هنا نقول أن السارد أراد أن يضفي على نصه العجائبي والخيالي، نوعاً من المصداقية، وتأكيد صحة الحدث الذي يرويه من ورود أحد شيوخ الربوات إلى عين وبار التي يؤكد النص التاريخي "معجم البلدان" على وجودها حقيقة، ويؤكد على أنها تعد موطناً للجن، الذي كثر الشر بينهم، وتحاربوا وتفرقوا، ليقارن بينهم وبين حال الإنس الذين لا يختلفون عن الجن في عنصر الشر.

ومن جهة أخرى، ألفينا الروائي عبد الملك مرتاض، يتخطى الوصف والتصوير إلى الوعي بالأزمة، فتراه يتواصل مع الماضي ليتناص مع التاريخ الجزائري للتعبير عن الموقف الحاضر، وهي محاولة تلامس كتاب "المرآة" لحمدان خوجة، وتقف بنا على مشارف الحياة العامة قبل وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وبناء على ذلك، نحاول أن نقف عند بعض النماذج من رواية "وادي الظلام"

- "كان شيخها المعظم الذي كان طعن في السن، فيقال إن عمره كان يشارف القرن، رجلاً حكيماً، وعلى علو سن الشيخ همدان شيخ الجلولية المعظم ..."
- " ... ولكنهم لم يجدوا وسيلة أخرى للإفلات مما كانوا فيه، لأن التجارة الخارجية كلها كان يحتكرها آل بكور اليهود في غير أن التجار اليهود، لم يكونوا يحصلون أموالهم نقداً، فكانوا ينتظرون هم أيضا زمناً قبل أن تدفع لهم حقوقهم قبيلة بني فرناس التي كانت لا تزال تتماطل في الدين، وتتأخر في الدفع".
- " ... وهي التي كانت تغريها بأن تفعل ما تفعل تنفيذاً للخطة التي كان دبرها أبوها، اليهودي بكور، لاحتلال الجلولية ..."

المنارة للاستشارات

4. التناص الأدبي في رواية وادي الظلام

ان الرواية بوصفها خطابا سرديا تستدعي الخطاب الأدبي بشتى أشكاله وتمظهراته مستثمرة لسلطته الرمزية و أبعاده التخييلية و طاقاته الترميزية مدمجة إياه ضمن تشعبات السرد، شكل يضفي على النص الروائي سمة التركيب الأسلوبي، مما يضمن للرواية تعدد لغويا، يمنح نفسه للقراءة كدليل معقد قابل للتأويل[9]

والمتأمل في الخطاب السردي لدى عبد الملك مرتاض، يجده قد أورد في ثنايا رواياته ألوانا من النصوص الغائبة، لأغراض دلالية و أسلوبية، اذ "حول الرواية الى مسرح لفعاليات الموروث بكافة طبقاته و مكوناته اذ انغمر السرد انغمارا شبه كلي، وقاد في نتيجة مهمة من نتائجه –على صعيد الرؤية التجريبية للرواية الى الانحراف عن مسطرة السرد التقليدية[10]–

وعليه، فان عبد الملك مرياض، يستدعي الأسطورة بوصفها ملمحا أدبيا، هذا ما يؤكده يوسف وغليسى. "ان عبد الملك مرتاض هو رائد الرواية العجائبية في الجزائر وان مرايا منشطية هي المدخل الحقيقي الى الأدب العجائبي، بعد مناورات قليلة سابقة قام بها الطاهر وطار في الحوات و القصر، وربما عبد الحميد بن هدوقة في الجارية والدراويش[11].

ان أسطرة المكان في بعض أعمال عبد الملك مرتاض كصوت الكهف و وادي الظلام، تبدأ من العنوان، لأنه "يتأسس وفق بنية متشظية، بنية متحولة مفتوحة، رهينة القراءة وتحولاتها، وقابلة للتأويل المتعدد"[12] .

فوادي الظلام، رسالة مشفرة "تبطن المكان، لكن أي مكان؟ فهو بالرغم من توفره على علامات جغرافية و طوبوغرافية، وهو معروف لدى عامة الناس الا أنه يبقى مجملا قابلا لتأويلات عدة من طرف المتلقي يتطلب تأويلها قراءة العلاقة التي أقامها الكاتب بين الزمان" الظلام و المكان الكهف"[13]

من الناحية الاجتماعية هو الذي أمن أهل الجلولية من العطش و الجوع، حيث كانوا يعتمدون على مياهه في الشرب و في سقي مزروعاتهم مما جعلهم يعيشون حياة كريمة " وكان أهل هذه القبيلة العظيمة يطعمون من ثمار وادي الظلام و يشربون و أنعامهم من مياهه"[14]

المنارة للاستشارات
ww

أما من الناحية السياسية فقد أصبح الجلوليون أحرارا في جميع شؤونهم، وقد كسبوا هذه الحرية من استقلالهم اقتصاديا الذي ما كان ليتحقق لولا الوادي الذي استقروا بجانبه وكونوا دولة عظيمة" كانت القبيلة عظيمة لا يأتي على تعدادها الحصر،و كانت قبيلة الجلولية لكثرة عددها، تستطيع أن تجند خمسين ألف مقاتل في يوم واحد اذا أحست خطرا داهما من إحدى القبائل المعادية لها[15].

من هنا "نجد الوادي ينهض بعديد الرموز و الايحاءات فهو رمز للقوة و التقدم و الحرية و الكرامة، مثلها تنهض الأماكن في الأسطورة، في حين نجد بقية الأمكنة في الرواية، وان كانت تبدو وهمية للقارئ بحكم عدم تحديد جغرافيتها قابلة للتحديد وهذا من خلال الأوصاف التي قدمها لها في الرواية "[16].

وعلى هذا الأساس، نجد عبد الملك مرتاض قد تفنن في تقنية استحضار الشعر، فهو لا يتجاوز ما نجده في الأعمال الروائية عامة التي نجد فيها الروائي" يستحضر البيت أو الأبيات الشعرية في المتن بطريقة الاقتباس لكن هذا لا يعني أنه لم يحاول بطرق الاستحضار الأخرى (أسلوب التناص التركيبي، أسلوب التناص الايجابي....)، فهو مرتبط بالقرآن الفاظا و تركيبا، و بالحديث الشريف، وبالشعر العربي، و النثر على اختلاف أنواعه وقد جرى كل هذا مع قلمه و هو يسرد روايته).

و المتأمل في المقطع الآتي:

أنت والله، أجمل من البدر ليلة التمام. !

عنقك ابريق فضة جميل !.....

شعرك شجرة حلفاء ناعمة تتدلى على عنقك فتغطي ظهرك الطويل...

صوتك خرير ساقية تنساب في قلبي فتسقيه بالسعادة بالنهار و الليل

قدك غصن بان أخضر !...

ما رأيت مثلك في النساء أبهى ولا أنضر !...

عيناك شمسان تشرقان على الغابة فتضيئاها بالنور العظيم...

المنارة للاستشارات

صدرك قاعدة فيها صاروخان منصوبان يدمران الجبل الطويل..[17]

يجده صوتا يشبه مقطعا من قصيدة بدر شاكر السياب الموسومة ب: أنشودة المطر

عيناك غابة نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأ عنهما المطر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

و ترقص الأضواء كالأقمار في نهر.

4. خاتمة:

وخلاصة القول، أن الروائي عبد الملك مرتاض في رواية "وادي الظلام" كان أسيرا لعديد النصوص التي تشربها في رحلة الاستئناس الطويلة بأمهات المصادر الدينية والأدبية والمعجمية، من عكس إيجابا على نصوصه الإبداعية، من ذلك نذكر حواره الطويل مع الخطاب القرآني والسيرة النبوية، وتداخل نصوصه الروائية مع الخطاب الشعري العربي – قديمه حديثه – إلى جانب الأمثال الشعبية التي تشبع بها خطابه السردي.

5. قائمة الإحالات:

[1]– مختار حبار: قراءة تناصية في قصيدة الياقوتة، مجلة تجليات الحداثة، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 1992، ص59.

[2]– عبد الملك مرتاض: وادي الظلام، ص49.

[3]– سورة الفجر، الآية: 13.

[4]– عبد الملك مرتاض: وادي الظلام، ص49.

[5]– سورة طه، الآية: 58.

[6]– عبد الملك مرتاض: وادي الظلام، ص19.

[7]– سورة البقرة، الآية:49.

[8]– سورة السجدة، الآية: 27.

[9] ينظر : سي أحمد محمود، سيميائية اللغة في أعمال عبد الملك مرتاض الروائية،ص125

[10] محمد صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص الروائي، عالم الكتب الحديث الأردن،ط1،2010،ص82

[11] يوسف وغليسي: في طلال النصوص،جسور للنشر، الجزائرط1، 2009، ص163.

المنارة للاستشارات

[12] خالد حسين: شؤون العلامات ، دار التكوين، سوريا، ط1 ، 2008 ، ص160

[13] سي أحمد محمود، سيميائية اللغة في الأعمال عبد الملك مرتاض الروائية، ص174 .

[14] عبد الملك مرتاض : وادي الظلام، ص19

[15] عبد الملك مرتاض : وادي الظلام، ص23

[16] سي أحمد محمود، سيميائية اللغة في أعمال عبد الملك مرتاض الروائية، ص174

[17] عبد الملك مرتاض : وادي الظلام، ص210

المنارة للاستشارات
ww